تقديم

حين اقتضت سنة الله في مخلوقاته أن يخلق من كل زوجين اثنين، إنما أراد سبحانه وتعالى أن تكون أعمال مخلوقاته الناجحة – المفلحة ثمرة تزاوج " الزوجين ". وهذه سنة إلهية عامة تشمل عوالم الأفكار والأشخاص والحيوان والنبات والجماد. فلا ثمرة أو مولود في جميع هذه العوالم إلا بتزاوج الفكرة مع التلقي، والأخذ مع العطاء، والذكر مع الأنثى، والموجب مع السالب، والمطر مع الأرض، والليل مع النهار.. وهكذا.

ولكن عمل هذه السنة الإلهية في عوالم الحيوان والنبات والجماد قائم على الحتمية والتسخير المطلق. أما عالم الإنسان الذي ابتلي – أي امتحن – بحرية الاختيار فلحريته خصوصية وهي أنها تقتصر على اختيار السبب وحتمية النتيجة. فالحرية للإنسان مضمونة في اختيار الجهل؛ ولكن ليس له الحرية بعد ذلك في تجنب التخلف المتولد عن هذا الاختيار. وحرية الإنسان مضمونة في تناول السم ولكن ليس له الحرية في تجنب الهلاك بعد تناوله، والحرية مضمونة للأمة أن تختار وحدة الصف أو تمزيقه؛ ولكن ليس لها الحرية بعد ذلك باختيار النصر أو الهزيمة، والعز أو الذل. ويضرب القرآن الكريم مثلا بالقوم الذين ظلموا أنفسهم فاختاروا أن يزرعوا حرثهم في فصل أصابها فيه ريح فيها صر – أي برد وصقيع – فلم يستطيعوا تجنب هلاك تلك المزروعات . وهكذا في كل ممارسات الإنسان وإنجازاته؛ هو يملك أن يختار مبادرة الأسباب ولكن الله يلزمه بالنتائج المترتبة على اختياراته.

على أن أوضح تطبيقات " سنة الزوجية " في حياة الإنسان تتجسد في علاقة الرجل بالمرأة. فحين يعمل غرور القوة عمله في نفس الرجل ويختار أن يمارس البناء والإصلاح دون التزاوج مع امرأة تماثله في المعلومات والإرادات؛ فإن نتائج عمله تبور وجهوده لا تثمر.وهذا يعني أن بناء المجتمعات وتشييد الحضارات إنما يتحقق بتكامل الزوجين الاثنين: الذكر والأنثى. فهذه سنة الله سبحانه وتعالى، ولن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلا. وهذا هو النموذج الأسري والاجتماعي الذي طرحه القرآن الكريم وأحكم الرسول ﷺ تأويله – أي تحويله– إلى تطبيقات عملية.

وانطلاقا من علاقة " التزاوج" هذه أطلق القرآن الكريم على كل من عضوي

الأسرة القرآنية اسم " الزوج " – وليس الزوج والزوجة – وهذا اسم لم يطلقه على المرأة إذا لم تقم بينها وبين الرجل علاقة تزاوجية مثمرة؛ أي علاقة تماثل وتكامل في الفكر والإرادة والإنجاب والسلوك والعمل.فهو مثلا لم يطلقه على نساء الرسل اللاتي لم يماثلنهم عقيدة وعملا فقال: ﴿ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ﴾﴿وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖ﴾ولم يقل (زوج نوح) ولا (زوج لوط) ومثله قوله تعالى: ﴿ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ﴾ ولم يقل (زوج فرعون) لأنها كانت مؤمنة استجابت لرسالة موسى عليه السلام، وفرعون كان عاصيا كافرا. ولذلك أيضا خاطب آدم: ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ لأن حواء كانت تماثله وتتكامل معه فكرا وسلوكا، وخاطب الرسول عليه الصلاة والسلام بأمثال: ﴿قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾ و﴿تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ﴾ لأنهن ارتقين إلى مستوى المسئولية التي تتطلبها صحبة الرسول ﷺ والعيش معه، ووصف سارة بأنها امرأة إبراهيم قبل إنجابها إسحاق وتحقيق الغاية من الزواج المتضمنة في قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ﴾.

وحين ندقق النظر في النموذج القرآني للمرأة؛ نجد أنها تتلخص في مجموعة من الحقائق المثبتة بشواهد التاريخ. فالمرأة هي حاضنة الرسل وسند الرسالات؛ كما تحدث عن أم موسى وأخته وزوجته ابنة شعيب، وامرأة فرعون، وعن مريم العذراء أم عيسى عليه السلام، وكما هو شأن هاجر زوج إبراهيم وأم إسماعيل، فلا غرابة أن رأينا القرآن الكريم يطلق اسم النساء على سورة طويلة فيه ويخصهن بسور المجادلة والممتحنة والنور والطلاق.

ولقد جسدت المرأة الصحابية في عصر الرسالة النموذج القرآني خير تجسيد، فكانت – قوية – تمام القوة في حمل الرسالة، – فاضلة – كل الفضل في علاقاتها الأسرية والاجتماعية وعفتها الأخلاقية. ولقد تعددت مظاهر– قوتها– بتعدد ميادين الحياة؛ فأول مسلم كان امرأة هي خديجة، وأول شهيد في الإسلام كان امرأة هي سمية، وأول عالم في مدرسة النبوة كان امرأة هي عائشة، وأول مدير مخابرات نظم هجرة الرسول ورتب سلامته وعدته كان امرأة هي أسماء، وأول مسلم من الفرس كان امرأة حيث روى ابن حجر في الإصابة (ج ٤، ص ٣٢٩) أن سلمان الفارسي قال: لما قدمت المدينة رأيت أصبهانية – أي من أصبهان – كانت قد أسلمت قبل فسألتها عن رسول الله فهي التي دلتني عليه، وأول مسلم من الأفارقة كان امرأة هي سمية التي جمعت بين السبق

والشهادة. وعلى أيد النساء المؤمنات أسلم كبار الصحابة كما حدث لعمر بن الخطاب الذي تلقى الدعوة بنجاح من أخته فاطمة، وكما حدث لعثمان بن عفان الذي أسلم على يد قريبته سعدة بنت كريز – كما يروي ابن حجر في كتاب الإصابة في أخبار الصحابة (ج٤، ص ٣٢٨)، وكما حدث مع عبد الله بن عباس الذي تلقى الدعوة من أمه أم الفضل وكانا من المستضعفين في مكة، وكما حدث مع علي بن أبي طالب الذي لقي التشجيع للالتحاق برسول الله ﷺ من والدته فاطمة بنت أسد في الوقت الذي ظل والده حبيس أغلال تقاليد الشرك، مثقلا بآصاره حتى وفاته دون إسلام.

وفي الوقت الذي كان فيه أبو جهل وعقبة بن أبى معيط وأبو سفيان يقودون مقاومة الإسلام ويضطهدون أتباعه كانت بناتهم يستأجرن الرواحل والأدلة ثم يخرجن مهاجرات إلى الحبشة والمدينة المنورة وهن لم يتجاوزن العشرين من العمر كما فعلت أم حبيبة بنت أبى سفيان، وأم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط.

وكانت هناك المجاهدات السابقات من أمثال أم عمارة، وأم سلمة، وصفية بنت عبد المطلب ومئات الصحابيات اللاتي خصص ابن سعد المجلد الثامن من كتابه طبقات الصحابة لهن ثم بخل المؤرخون الإسلاميون على تفصيل سيرهن حين جعلوا تاريخ الإسلام تاريخ ذكور. وكان هناك المعلمات – المربيات- من أمثال الشفاء بنت عبد الله التي هاجرت إلى المدينة لتقف إلى جانب الرسول ﷺ وتختص بتعليم النساء الخط والكتابة والطب، ثم لتشارك بعده في السياسة والإدارة فتتولى منصب الحسبة في زمن الخليفة عمر بن الخطاب وهو منصب يقابل – في زماننا- منصب عدة وزارات هي وزارة الداخلية، ووزارة الرعاية الاجتماعية، ووزارة الثقافة، وكانت هناك المستشارات الحكيمات في مواقف التأزم كما فعلت أم سلمة التي أشارت على الرسول ﷺ بعد احتجاج المسلمين على شروط صلح الحديبية أن ينحر هديه ويتحلل من إحرامه فيتبعه الجميع؛ فكان ما أشارت به وتوقعت نتيجته، وكانت هناك المناقشات في مجالس العلم واستنباط الفقه في مسجد الرسول ﷺ في أثناء حياته، وفي زمن خلفائه الراشدين؛ وكانت هناك المرافقات لجيوش الجهاد اللاتي نظمن المستشفيات العسكرية المتنقلة والفرق المساندة.

واستمرت المرأة الصحابية سباقة في حمل مسئولياتها، جريئة في أقوالها وأفعالها والتعبير عن حاجاتها – حتى عن حاجتها إلى الزواج واختيار من ترى فيه الأهلية – لا يوقف إرادتها عن قول الحق وفعله سطوة خليفة، أو مهابة قريب، أو نفوذ مسئول إلا ما

كان من طاعتها لله وخشيته. وكانت (فاضلة) في تبعلها وإسباغ السعادة والسكن وإشاعة المودة والرحمة في أسرتها؛ تؤدي لزوجها وبنيها وأرحامها حق الله دون تردد أو حساب.

وفي كل عصر أحكمت حرمات التجديد والإصلاح إعداد المرأة المسلمة؛ كانت تخرج نماذج تتصف بالقوة والفضل سواء.

وفي الفصول التي أوردتها في كتابي – هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس – وعرضت فيها دور المرأة المسلمة في إخراج جيل نور الدين وصلاح الدين؛ بينت كيف أن الإعداد التربوي المحكم أدى إلى بروز شخصيات نسائية تتصف (بالقوة والفضل) من أمثال السيدة خاصة العلماء بنت المبارك والسيدة شمس الضحى، وفاطمة الجوزدانية، وشهدة بنت أبي نصر، ثم كيف استمرت تلميذاتهن إلى جانب رجال جيل الجهاد؛ كما فعلت زمرد خاتون زوجة عماد الدين زنكي، والسيدة عصمت الدين خاتون زوجة نور الدين، والسيدة فاطمة بنت سعد الخير زوجة علي بن نجا وأمثالهن من جيل الجهاد. ويقيني أن جيل نور الدين وصلاح الدين ما كان بقدرته تحقيق المنجزات التي قام بها لو لم تخرج مدراس الإصلاح ذلك الجيل من النساء اللاتي ارتفعن إلى مستوى المسئولية والوعي بالتحديات المعاصرة.

ومن هذا النموذج القرآني والتطبيقات المؤمنة في عصر النبوة والخلافة الراشدة استلهم الشاعر الإسلامي جلال الدين الرومي مواصفاته في الزوجة التي يريدها حين كتب يقول:

" إنك زوجتي! والزوجة لابد لها أن تتفق مع الزوج في الصفاء حتى تجيء الأمور وفق مصلحتهما!

فالزوجان يجب أن يكون كل منهما على مثال الآخر، ألا فلتتأملي زوجين من الأحذية أو النعال؟ فلو أن واحدا من النعلين ضاق بقدمك فلا نفع لهذين النعلين عندك!

وهل بين مصراعي الباب واحد صغير وآخر كبير؟

أم رأيت ذئبة اقترنت بأسد الغاب؟

وليس يستقيم فوق ظهر الجمل زوجان من الحقائب إحداهما صغير والأخرى كاملة الاتساع.

إنني أسير بقلب قوي نحو القناعة، فلماذا تذهبين أنت إلى الشناعة؟ "

في ضوء ما تقدم من استعراض لنموذج المرأة القرآني وتطبيقاته الحكيمة لعلي لا أصدم القارئ إذا قلت أن نموذج المرأة القائم في المجتمعات الحاضرة لم يعد ملائما لا في الغرب الأوروبي والأمريكي، ولا في الشرق العربي الإسلامي وغير الإسلامي، وأن كلا النموذجين مرفوض من أهله وذويه في مجتمعات الأطوار الحديثة – أطوار تفجر المعرفة، وطور العالمية الذي تهدمت فيه الحدود بين الثقافات والقيم وتطبيقاتها في الاجتماع والسلوك.

إن النظر في تاريخ المرأة يشير إلى أن النساء ثلاثة أصناف:

الأول؛ المرأة الفاضلة – القوية. وهو نموذج المرأة الصحابية التي شاركت الصحابي مسئولياته وجهاده في جميع الميادين.

والثاني؛ المرأة الفاضلة – الضعيفة، وهو نموذج غالب النساء اللاتي تحكمهن التقاليد والأعراف العصبية في الأقطار العربية والإسلامية. وهو أيضا نموذج المرأة عند كثير من الإسلاميين المعاصرين الذين يحاربون الوأد الجسدي للمرأة ويصرون على بقاء الوأد الاجتماعي.

والثالث؛ المرأة القوية – غير الفاضلة، وهو النموذج الغالب على المرأة الغربية ومن اقتدى بها في الأقطار الأخرى ومنها الأقطار العربية والإسلامية.

والنهضات لا تقوم، والنجاح لا يتحقق إلا برجل قوي – فاضل، وامرأة قوية – فاضلة.

إن المرأة سواء بصورتها التقليدية أو الحديثة التي أفرزتها المجتمعات الرأسمالية وحضارة " الإنتاج والاستهلاك " المعاصرة لم تعد صالحة لحمل مسئولياتها وذلك لسببين:

السبب الأول؛ أن المرأة التقليدية نموذج مغترب في ماضي البادية والريف، غائب عن حاجات الحاضر وتحدياته التربوية والثقافية والاجتماعية والتكنولوجية والصحية، والعلاقة في أسرتها – علاقة عمودية – تقوم على رجل يهيمن هيمنة مطلقة بسبب ذكورته، وامرأة مستضعفة استضعافا مطلقا بسبب أنوثتها. وأساس التوجيه في هذه الأسرة أوامر غير مفهومة ولا مبررة؛ ولذلك يتحين الأبناء والبنات فيها الفرص للانعتاق من " أغلالها " و" آصارها " الصارمة، وهذا النموذج من المرأة أسرتها في انحسار دائم

أمام وسائل الاتصال الحديثة، وبرامج التحديث، ومخططات العولمة التي تهددها بالتمزق والتحول إلى أكوام من الرقيق الأبيض، والعمالة، وعارضات الأزياء، والخدمة الرخيصة في أسواق الاستهلاك التي يقيمها وكلاء الشركات العالمية في الأقطار العربية والإسلامية.

والسبب الثاني؛ أن المرأة الحديثة سلعة تجارية في نظام الاقتصاد الرأسمالي، أو اقتصاد السحت كما يسميه القرآن الكريم – ومكانتها الاجتماعية تميل لصالح مكان العمل أكثر من البيت؛ ولذلك صار يتجاذب المرأة علاقتان: علاقة أفقية مضطربة مع زوج فقد قوامته إما بسبب قلة معرفته وإما بسبب انحسار إنفاقه ومكانته، وعلاقة عمودية مع رئيس عمل أو مجموعة من الرؤساء يتحكمون بمصير المرأة الوظيفي وراتبها المالي، وعلاوتها السنوية، وهذه علاقة لم تحرر المرأة كما يزعم سدنة الرأسمالية وكتابها، وإنما أجبرتها على تحويل طاعتها وزينتها وحسن تبعلها إلى مكان العمل حيث يتمتع الرئيس بغالب – وأحيانا بجميع – ما كان يتمتع به زوج البيت، بينما لم يبق لزوج البيت إلا الكسل والضجر ورثاثة الشكل والسأم والعبوس ومريول المطبخ المنفوش والشعر المنكوش، ولم يبق للبنات والبنين إلا دور الحضانة ورياض الأطفال التي تنشئهم على ثقافة القطيع، وبسبب ذلك كله يتقرر تماسك الأسرة الحديثة طبقا لمحصلة التجاذب المتضاد بين متطلبات رئيس العمل من ناحية وبين متطلبات زوج البيت من ناحية أخري. ولقد أدرك الروائي الأمريكي – فيث بالدوين Faith Baldwin – طبيعة هذا الاضطراب الذي أصاب الأسرة الحديثة فكتب عام ١٩٢٩م روايته – زوجة المكتب The Office Wife – والتي أعيد طبعها عام ١٩٩٣م. وهو أيضا ما أدركته الباحثة الاجتماعية البروفيسورة – ترى ابتر Terri Apter – حين أعطت كتابها هذا العنوان الساخر: النساء العاملات ليس لهن أزواج أو Working Women Don't have Wives.

لذلك كله تظل المرأة الموصوفة بالقوة والفضل هدفا تربويا عالميا ومطلبا إصلاحيا في مجتمعات العالم المعاصر كلها. ولكن هذا النموذج النسائي – القرآني لن يبرز للوجود إلا بنظام تربوي محكم الأصول والتطبيقات، وهو ما وضعت لبنته الأولى باحثتنا الدكتورة حفصة منشي في أطروحتها عن أصول تربية المرأة المسلمة المعاصرة، وبذلك سنت سنة حسنة أسأل الله أن يجعل لها حسنتها وحسنات من يعملن بها.

ولكن لعلي أصدم القارئ حين أقول: إن كلا الفريقين من الباحثين في قضايا المرأة: فريق الإسلاميين، وفريق الحداثيين لما يزالا بعيدين عن الوعي بحقيقة المشكلة التي

يعالجونها وكتبوا عنها مئات الكتب وآلاف المقالات؛ لأن كلا الفريقين لا يتمتع بالعقلية المبتكرة القادرة على النظر إلى المشكلة نظرة علمية – موضوعية ومازال يستورد نموذج المرأة أو يقلد فيه. الأول يستورد من الغرب الحديث نموذج المرأة التي توصف بالتحرر لأنها تتمرد على الأخلاق والقيم المؤصلة، وهو في استيراده لا يستورد جميع النماذج القائمة في المجتمعات الغربية؛ وإنما يقتصر على النموذج الذي تصدره مؤسسات الثقافة والإعلام العاملة في خدمة الرأسمالية الدولية وأسواقها. والثاني يستورد من الماضي الإسلامي كله محصلة نموذج المرأة الذي أفرزته أخلاط التصورات التي اختلط فيها الفقه الصائب مع الفقه الخاطئ ومع الأعراف والتقاليد المنحدرة عبر عصور الازدهار والجمود سواء. ولا فرق بين الفريقين؛ لأن الفريق الأول يقلد الجديد المستورد، والثاني يقلد القديم الموروث ولا فرق بين التقليد القديم والتقليد الجديد، فكلا النوعين تعطيل للعقل وتكريس للجمود وإن اختلفا في الأزمنة والأمكنة.

إن أزمة المثقف والمفكر والعالم والفقيه في الأقطار العربية والإسلامية المعاصرة أن الواحد منهم ما زال حبيس التلقين والتقليد في كل أطروحاته الفكرية والثقافية والعلمية، وأنه مازال عاجزا عن قراءة كتاب الآفاق والأنفس، طفلا على موائد المعرفة؛ يجلس على طاولة الدرس جاهزا لاستظهار ما يلقيه عليه المعلم إن كان تلميذا أو طالبا، وما تلقيه أجهزة الإعلام إن كان مواطنا، وما ينحدر من الماضي إن كان متدينا، وما يصدر ويستورد من الغرب والشرق إن كان مثقفا أو متعلما. فهو متسول ينتظر الأفكار والتقريرات لتقدم له مطبوخة ممضوغة ثم يجترها في دفتر الدرس أو الصحيفة أو الكتاب أو المحاضرة أو الحديث التلفزيوني. يلقيها المقلد القديم بمنهج – الكنتي – أي الذي يروي: كان السلف، وكان الأجداد، وكانوا.. وكانوا.. ولا شيء غير " كانوا "، ويلقيها المقلد الجديد بمنهج – العندي- أي الذي يقول لا يتوقف عن ترديد: عند أوروبا، وعند أمريكا، وعند ديوي،وعند ماركس، وعند دور كايم، عند ماركس وعند.. وعند.. ولاشيء غير هذه – العنديات – المنقولات والمترجمات.

هذه الإشكالية الفكرية جعلتني أشك في كل ما درسته على مقاعد الدرس، ودفعتني للانزواء في المدينة المنورة ومكة المكرمة مدة خمسة عشر عاما أراجع ما في نفسي وأشكال تفكيري ومحتويات رأسي. وفي خضم هذه المراجعة حاولت التحرر من منهج " الكنتيين " ومنهج " العنديين " في البحث عن نموذج الإنسان القرآني وتطبيقاته التاريخية ومنه

نموذج المرأة. وفي خضم مراجعتي وتفاعلي الفكري والوجداني مع قضية المرأة كنت أدرس مجموعة من الطالبات الفضليات في جامعة الملك عبد العزيز وجامعة أم القرى لمرحلة الماجستير والدكتوراة أصول التربية الإسلامية، ونظريتها وأهدافها ومناهجها، وكان بين أولئك الطالبات الفضليات الطالبة – حفصة أحمد منشي- والدكتورة في الوقت الحاضر، ولكم سرني تيقظها العقلي وحماسها العلمي وتفاعلها مع طروحاتي عن نموذج الإنسان المسلم والمرأة المسلمة، وكان من ثمرة هذا التفاعل أن أشرفت على أطروحتها لنيل الدكتوراة التي اختارت موضوعها ليكون عن - أصول تربية المرأة المسلمة المعاصرة-. قبلت المهمة مسرورا ومضيت مع - الطالبة حفصة - وهي تكتب فصول أطروحتها فصلا فصلا، وتتصدى للبحث في هذا الموضوع المليء طريقه بأفواج المأسورين للأعراف والتقاليد الذين يخطبون ويكتبون ويحاضرون عن تحرير الإسلام للمرأة تاريخيا ويصرون على استمرار وأدها اجتماعيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا. وحتى إذا جاء وقت مناقشة الأطروحة أثبتت صاحبتها – بجدارة – أنها باحثة اجتهدت في قراءة آيات الله في الكتاب وآياته في الآفاق والأنفس وقدمت الدليل تلو الدليل على أن نموذج المرأة المسلمة في القرآن الكريم هو مطلب عالمي للنساء في مجتمعات العالم كلها بعد أن أرهقهن نموذج الرأسمالية، ودفعن الثمن غاليا من إنسانيتهن وحرمتهن وفطرتهن وصرن سلعة من سلع اقتصاد السحت ووسائل الدعاية والتسويق وفنون اللهو، ودرأت المقولة التي تقول: إنه لا يصلح للمرأة أن تخرج من بيتها إلا مرتين: مرة إلى بيت الزوج ومرة إلى القبر. وفندت قول الذين لا حجة لهم إلا أنهم وجدوا آباءهم على نموذج من المرأة وأده الآباء اجتماعيا وأبقوا عليه جسديا.

ومرت المناقشة واجتازتها الطالبة حفصة بتفوق نال إعجاب المناقشين والحضور سواء، وقدمت نموذجا صالحا لأخواتها السائرات في الطريق نفسه. واليوم وقد يسر الله سبحانه طباعة الكتاب فإن من عظيم اعتزازي وكبير سروري أن أكتب هذه المقدمة لعمل شريف من أعمال ابنة من بنات الفكر والتربية، وداعيا كل امرأة تبحث عن إنسانيتها وتتطلع إلى التحرر الصحيح أن تلتحق بهذا الركب النسائي المؤمن.

جزى الله الدكتورة حفصة خير الجزاء وبارك لها في باكورة أعمالها، وعسى أن تكون طليعة لأخواتها اللاتي تركتهن خلفي في مكة وجدة والطائف، أذكر منهن على سبيل المثال وليس الحصر الدكتورة **عائشة الجلال**، والدكتورة **ابتسام جفري**، والدكتورة **صافيناز**

غنيم، والطالبة **بدرية البسام** والمرشحة للدكتوراه **عواطف الحسيني**، **وجميلة السقا وغيرهن** ممن لا يتسع المقام لسرد أسمائهن، ودعائي إلى الله أن يفتح قلوب رجالهن من الآباء والإخوة والأزواج للوقوف إلى جانبهن كما وقف إلى جانب الدكتورة حفصة إخوتها وزوجها الفاضل؛ لأنهن - حسب خبرتي – خميرة صالحة للنموذج العالمي للمرأة المسلمة التي ستقود طلائع المرأة – الإنسان – في عصر العولمة التجارية، والله سبحانه يتولى جهود المؤمنات القانتات العابدات المجاهدات بالولاية والرعاية إنه نعم المولى ونعم النصير.

د. ماجد عرسان الكيلاني

أستاذ التربية الإسلامية والتربية الدولية

في جامعة الملك عبد العزيز وجامعة

أم القرى سابقا وجامعة الشارقة حاليا.

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمـــة

الحمد لله الذي جعل مسئولية المرأة في نطاق ما وهبها مـن " وسـع" أو اسـتعدادات وقدرات، وميزها عن الرجـل بخـصائص الأنوثـة والـصفات. والـصلاة والـسلام عـلى المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن من المعالم البارزة في تاريخ الإسلام، ما نجده من عظمـة في الدور الذي قامت به المرأة الصحابية، وشمول هذا الدور وأصالته ومعاصرته؛ فقد كان أول مـسلم اسـتجاب لدعوة الرسول ﷺ امرأة وهي خديجـة بنت خويلد رضي الله عنها ، وكان أول شهيد في الإسلام؛ امرأة وهي سمية بنت خيـاط زوجـة يـاسر وأم عـمار رضي الله عنهما، وكـان أبـرز عـالم نـال شـهادة الأستاذية من مدرسة الرسول ﷺ؛ امرأة وهي عائشة رضي الله عنها .

كما كانت المرأة شريكا عميـق التـأثير في مـسيرة الـدعوة والجهـاد وبنـاء المجتمـع. وخلال ذلك برزت شخصيات نسائية متميزة من أمثـال الخنـساء، وأسـماء بنـت أبي بكـر الصديق، وصفية بنت عبد المطلـب، والـشفاء بنـت عبـد الله، وغـيرهن رضي الله عـنهن أجمعين.

ولم تكن هذه المشاركة محصورة في نفر محدود من النـساء، وإنـما كانـت ظـاهرة عامـة جسدها جيل الصحابيات في عصر النبوة والخلافـة الراشـدة، حيـث شـاركن في مـسيرة الدعوة والبناء.

ثم بدأ المد الإسلامي خارج شبه الجزيرة العربيـة، فاسـتمرت المـرأة المـسلمة في أداء الدور نفسه، حيث برزت شخصيات من أمثال خولة بنت الأزور، وسكينة بنت الحـسين وغيرهن.

وكانت السمة العامة التي تلخص هذه المشاركة الجهادية والعملية للنـساء؛ أن المـرأة المسلمة كانت توازن موازنة دقيقة رائعة بين دورها الأسري و دورها الاجتماعـي؛ فمـثلا كانت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها – وهي تقوم بدورها الأسري – تحمل العلف على رأسـها من خارج المدينة لتقدمه لفـرس زوجهـا الـزبير بـن العـوام رضي الله عنه ، ولكنهـا – في دورهـا الاجتماعـي– كانـت تنتـصب سـندا قويـا، وحـصنا منيعـا يمـد ولـدها عبـد الله رضي الله عنه بالشجاعة، والثبات على المبدأ؛ حيث نجدها غداة قتله، وفي آخر لقاء بينها وبينه تقول له:

" يا بني... .... ما أحب أن أموت حتى آتي على أحد طرفيك، إما أن تملك؛ فتقر بذلك عيني، وإما أن تقتل فأحتسبك..... يا بني، إياك أن تعطي خصلة من دينك مخافة القتل "(الكاندهلوي، د.ت، ج١، ص٢٧٥).

هذه الظاهرة البارزة لدور المرأة المسلمة في عصر الرسالة وعصر الخلافة الراشدة؛ تدل على أنه كان هناك نظام تربوي ذو أصول تربوية شاملة، جسدت (أصالة) التعاليم الإسلامية في شخصية المرأة المسلمة، وهيأتها للمشاركة الفعالة الكاملة في مواجهة التحديات، وتلبية الحاجات التي أفرزتها أحداث عصرها الذي عاشت فيه، وجعلت لها صفة مميزة بين نساء الحضارات، وهي أنها (امرأة قوية- فاضلة) [1].

ولا غرابة في هذه الصفة؛ لأن النظر في الأصول العقدية يبين أن الإسلام قد حرص على تعليم المرأة حرصه على تعليم الرجل، ويؤكد ذلك قوله ﷺ فيما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه :" طلب العلم فريضة على كل مسلم" (ابن ماجه، د.ت، ج١،المقدمة، ص ٨١)، ويؤكده كذلك طلبه عليها السلام من الشفاء بنت عبد الله أن تعلم زوجه حفصة حين قال لها: "ألا تعلمين هذه رقية النملة كما علمتها الكتابة. " (أبو داود، د.ت، ج٢، الطب/ ٣٨٨٧، ص ١١).

ونجد أن نصوص القرآن الكريم عندما تخاطب المسلمين بأمر أو تكليف؛ فإنها لا تخاطب الرجل وحده، بل تخاطب كلا من الرجل والمرأة، وهذا ما دفع بالمسلمات الأوائل رضي الله عنهن إلى الاهتمام بتعاليم الدين الجديد، وطلبهن من الرسول ﷺ أن يخصهن بالتعليم، فجعل لهن يوما يعظهن فيه ويسألنه عما يعن لهن من أمور (البخاري،١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ج١، العلم/ ٣٦، ص ٣٤) .

وفي عهد الخلفاء الراشدين، كانت النساء يشتركن مع الجمهور في سماع خطب الخلفاء، ويحضرن المواعظ والخطب التي كان يلقيها علي بن أبي طالب، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم وغيرهما، كما أقبلن على رواية الحديث خاصة، إقبالا عظيما، حتى وجدنا ابن سعد يشير في الجزء الثامن من طبقاته إلى أكثر من سبعمائة امرأة روين عن رسول الله ﷺ

(١) هذا المصطلح مأخوذ عن الدكتور ماجد الكيلاني، (انظر مؤسسات التربية الإسلامية، مسودة).

أو عن الثقات من أصحابه.

واستمر تعليم النساء بعد العهد الراشدي سنة حسنة تتوارثها الأجيال، حيث كان الأمراء يعلمون بناتهم داخل القصور، بينما كان عامة الشعب يعلمونهن في الكتاتيب. (الأهواني، د.ت، ص ١٠٤).

ثم خلف صدر الإسلام وعصور الازدهار أجيال تأثرت بثقافة عصبيات الجاهلية وعاداتها وتقاليدها، ونتيجة لذلك؛ انحسر دور المرأة المسلمة في دائرة الأخلاق الفردية وشبكة العلاقات الأسرية- دون دورها الاجتماعي- الأمر الذي انعكس على مفهوم تربية المرأة وتعليمها؛ حتى اعتبر تعليم المرأة الكتابة والخط من دواعي إفسادها (القابسي، د.ت، ص ٢٨٩).

ويرى الأهواني أن الخوف من فساد البنات هو الذي دفع بالمسلمين إلى الامتناع عن تعليم البنات في عصور الركود والتقليد (الأهواني، د.ت، ص ١٨١)، بينما يرى البعض أن السبب في ذلك يرجع إلى صعوبة الرحيل في طلب العلم على النساء وهو ما كان يقوم به طلاب العلم (شلبي، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص ٤٢٩)، ولكن الحقيقة التي ينبئ عنها الواقع، هي أن تقاليد العصبيات القبلية التي تجعل الفكر يدور في فلك القوة قد تدخلت مرة ثانية وجعلت تعليم المرأة يتقلص كثيرا عما كان عليه في صدر الإسلام وبسرعة،حيث إنحصر في شيء من القرآن وعلوم الدين قراءة دون كتابة، وذلك في الكتاتيب التي استمرت حتى افتتاح المدارس وما بعده في أكثر البلاد الإسلامية في القرن العشرين الميلادي.

ومما يدل على انحسار تعليم المرأة في العصور المتأخرة؛ ما ذكرته المصادر من أن تعليم المرأة كان من ضمن المحظورات في أواخر العصر العثماني، وأنه في حين كان القانون يقيد تعليم المرأة الغربية فقد كان القانون في البلاد الإسلامية أقل تقييدا، إلا أن العرف كان أكثر تقييدا من القانون. (تاريخ البشرية، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م، مج٦، ج٢، ص ٢١٣-٢١٧).

ومنذ القرن الماضي أحس نفر من المهتمين بضرورة تعليم المرأة المسلمة وتحريرها من

سجن تقاليد العصبيات الذي سجنت فيه، ومنهم رفاعة الطهطاوي [1] و قاسم أمين [2] وغيرهما.

إلا أن هذه الصيحات الإصلاحية كانت تعاني من أمرين: الأول؛ عدم وضوح الأصول التي يجب أن يقوم عليها تعليم المرأة المسلمة، والثاني؛ تأثر أصحابها بالتمدن الغربي في اتجاههم نحو المرأة، دون إدراك للبون الشاسع بين المجتمع الغربي والمجتمع الإسلامي من حيث الجذور والنشأة والقيم.

والواقع أن نموذج تعليم المرأة الغربية فيه خطر كبير؛ لأنه لا يستمد أصوله من اعتبارات إنسانية المرأة، وإنما يقوم على أصول اقتصادية- صناعية أملتها ظروف الثورة الصناعية التي تبلورت منذ القرن التاسع عشر، والتي واكبتها الفلسفة التربوية التي تقول بأن التعليم يمثل استثمارا اقتصاديا. وتعمقت الحاجة لهذه الأصول في القرن العشرين الذي شهد حربين عالميتين أهلكت الكثير من الرجال، وجعلت الحاجة ماسة إلى عمل النساء والأطفال، وكان مما أغرى رجال الصناعة بدعم هذا النوع من التعليم؛ رخص أجور النساء وقلة المشكلات التي تصاحب عملهن *(Spring , 1986 , pp.80-94)* .

وكان من نتائج الثورة الصناعية ظهور حركة الاستعمار التي استهدفت السيطرة على مصادر المواد الخام اللازمة للصناعة وفتح الأسواق للمنتجات الصناعية. ولتحقيق هذين الهدفين عملت الإدارات الاستعمارية في المناطق المستعمرة على السيطرة على نظم التعليم، وصبغه بصبغة تلبى احتياجات المستعمر دون اهتمام يذكر بحاجة المجتمع وأفراده (تاريخ البشرية، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م، مج٦،ج٢، ص ٢٢٨-٣٦٢).

ومن ثم أصبحت أصول تعليم المرأة تعدها لتصبح أداة من أدوات الاستهلاك في

---

(١) عالم مصري من أركان نهضة مصر العلمية في العصر الحديث. ولد في طهطا... وأرسلته الحكومة المصرية إماما للصلاة والوعظ في بعثة من الشباب أوفدتها إلى أوروبا لتلقى العلوم الحديثة، فدرس الفرنسية وثقف الجغرافيا والتاريخ. من كتبه: قلائد المفاخر في غرائب عادات الأوائل والأواخر، تعريب القانون المدني الفرنساوي، المرشد الأمين وغيرها. توفي بالقاهرة. " (الزركلي، د.ت، ج٣، ص ٥٥).

(٢) قاسم بن محمد أمين المصري: كاتب، باحث. اشتهر بمناصرته للمرأة ودفاعه عن حريتها. كردي الأصل. ولد ببلدة " طرة " بمصر. انتقل إلى الإسكندرية. فنشأ وتعلم بها ثم بالقاهرة، وأكمل دارسة الحقوق في فرنسا، وعاد إلى مصر سنة ١٨٨٥م، فكان وكيلا للنائب العمومي بالمحكمة المختلطة، فمستشارا بمحكمة الاستئناف. توفي بالقاهرة. من كتبه: كلمات قاسم بك أمين، تحرير المرأة، المرأة الجديدة. (الزركلي، د.ت، ج٦، ص ١٩).

البلاد المستعمرة. وانسجاما مع هذا الهدف، أصبحت الموضوعات التى اشتمل عليها تعليم المرأة؛ تركز على دراسات أو تخصصات تدفع بالمرأة إلى أعمال اجتماعية معينة مثل: الاقتصاد المنزلي وتربية الأطفال، ثم قدمت موضوعات مثل الطباعة، وتنمية المهارات المكتبية، وذلك لبنات الطبقة العاملة اللاتي لم يكن يسمح لهن بمواصلة تعليمهن العالي الذي كان مقصورا على بنات الطبقتين المتوسطة والعالية (*The International Encyclopedia of Education, 1985, Vol.9 pp. 5560-5561*).

وقد ترتب على افتقار العالم الإسلامى المعاصر لنظرية تربوية واضحة تحدد الأصول التي يجب أن يقوم عليها تعليم المرأة أمران:

الأول؛ اهتمام القائمين على هذا التعليم بالشكل والكم دون الكيف والمضمون.

والثاني؛ اتخاذ نمط التعليم الغربي أنموذجا يحتذى به في تعليم المرأة. وقد تجسد هذا التقليد في إرسال الأسر العالية بناتهن إلى المدارس الأجنبية، وإرسال البعثات إلى الأقطار الأوروبية، وفي بساطة المشروعات التربوية التى نادى بها عدد من النساء اللاتي تبوأن مكانة في المجتمع مثل زينب فواز[1] السيدة المصرية التى كتبت في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين مقالات كثيرة؛ انتشرت في معظم الأقطار الإسلامية، وكانت تنادي فيها بإتاحة فرص التعليم للجميع، ومثلها ملك حفنى ناصف[2] التى تخرجت ضمن أول دفعة لأول مدرسة ابتدائية حكومية في مصر وذلك في عام ١٣١٨هـ/

(١) كاتبة أديبة وشاعرة، ولدت في تبنين، وفي العاشرة انتقلت إلى الإسكندرية وبدأت في دراسة القراءة والكتابة على الأستاذ محمد شبلي. ثم تلقت الصرف والبيان والعروض والتاريخ على الأستاذ حسن حسني باشا الطويراني صاحب جريدة النيل، والإنشاء والنحو على يد محيي الدين النبهاني، وانصرفت بعد ذلك إلى نظم الشعر. ولها مقالات في الصحف والمجلات تدل على إمكاناتها الأدبية ولها مؤلفات أهمها: الدر المنثور في طبقات ربات الخدور وهو ترجمة لشهيرات النساء في العالم. (كحالة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ج٢، ص ٨٢-٩١).

(٢) كاتبة اجتماعية كبيرة ولدت بالقاهرة: فتلقت مبادئ العلوم في مدارس أوليه مختلفة ثم دخلت المدرسة السنية في عام ١٨٩٣م وحصلت على الشهادة الابتدائية عام ١٩٠٠م ضمن أول دفعة حصلت على تلك الشهادة، ثم حصلت على شهادتها العالية من المدرسة نفسها واشتغلت بعد ذلك بالتعليم في مدارس البنات الأميرية. أسست اتحاد النساء التهذيبي، وتوفيت عام ١٩١٨م. قال عنها أحمد لطفي السيد باشا: " إنها أكتب سيدة= = قرأنا كتاباتها في عصرنا الحاضر... " وقال عنها أحمد زكي باشا: " إنها أعادت لنا ذلك العصر الذهبي الذي كانت فيه ذوات العصائب يناضلن أرباب العمائم في ميدان الكتابة والخطابة ". من آثارها: النسائيات، حقوق النساء، رسالتها إلى المؤتمر المصري المنعقد عام١٩١١ م (كحالة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ج٥، ص ٧٤-٩٧).

١٩٠٠م (فرج ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ص ٨١-٨٥).

وكانت ملك تدعو إلى أن تسارع المرأة إلى التربية وإلى التعليم الصحيح لا أن تتعلق بقشور المدنية الأوروبية. إلا أن ما حدث بعد ذلك هو أن الهيئات المشرفة على تعليم المرأة المصرية قد اختارت اتجاه قاسم أمين؛ حيث عملت على تأسيس تعليم المرأة المسلمة المعاصرة على أصول مستمدة من الغرب، وتبعتها في ذلك غالبية الدول الإسلامية.

ومع أن الجهود التي بذلت وتبذل تدل على كبير عناية بتعليم المرأة إلا أن الحاجة قائمة لتداعي المختصين التربويين من أجل إجراء البحوث التي تبلور أصول تربية المرأة المسلمة المعاصرة وذلك نظرا للتغيرات التي سوف نناقشها في أهمية المشكلة، ومن ثم كان هذا الكتاب محاولة للإسهام في تسهيل عودة المرأة المسلمة لتتبوأ مكانها الطبيعي في المجتمع الإسلامي في كل مكان، وهي قادرة على ذلك إذا ما أعدت له من خلال تربية شاملة تتناول جميع جوانب شخصيتها، وتصقل جميع مهاراتها، بحيث تستمد روحها وأصولها من الإسلام، وتستفيد في ذلك من كل مستحدثات العصر.

* * *